المقدمات الغزلية ودلالتها في العصر الجاهلي

أ . سليمان مفتاح منصور المنصوري ـ كلية التربية العجيلات ـ جامعة الزاوية

المقدمة :

حرص شعراء العرب علي استمالة المتلقي وشد انتباهه لقوله عن طريق الغزل التمهيدي الذي به يتشوق المتلقي إلي القصيدة ولا ينصرف عنها ،أما بالنسبة للشاعر فعند تناوله لأي من الشعر مثل :- المدح ، أو الوصف أو البقاء ،أو الرثاء ... يبدأ بعاطفته لكي يتمثل موضوعه ، حتي يندمج فيه فيسهل عليه قرض الشعر فتنهال عليه الأفكار والصور التي تجسد عاطفته وأحاسيسه ، فينال الخطوة لدي المتلقين ، وقد رسم الدكتور أحمد محمد الحوفي صورة حية للشاعر في عصرنا الحاضر وقدرته لدي سامعيه فقال :- "مثله في ذلك مثل المغني أو المغنية لابد له من قبل الغناء من جو موسيقي يثير كوامن الشاعر وتهيئة لأن يطرب ويُطرب" هذا خاص بالشاعر الذي تتدفق عواطفه ، أما الشاعر الذي لا يعرف عاطفة الحب ، فهو متكلف في غزله كما سنرى في الأمثلة نوردها ان شاء الله ، وليس الغزل التمهيدي بنوعيه عيبا أو زيادة في القول بل هو عمل فني مقصود ، لأن الشاعر المحب عندما يتناول فنا من فنون الشعر يعبر عن عاطفته نحو غرضه الذي يتناوله ، لكي يؤثر في نفوس متلقيه.

وسأتناول الفنون التي استخدم فيها الغزل التمهيدي من قبل الشعراء العرب مثل :- الرثاء

نال الغزل التمهيدي خطوة في المراثي من قبل الشعراء العصر الجاهلي من هؤلاء الشعراء المهلهل يرثي أخاه كليبا فقال :

طفلة ما ابنة المحلل بيضاء *** لعوب لـــــــذيذة في العتـــــاه

فاذهبي ما إليك غير بعيد *** لا يؤاتي العناق من في الوثاق

ضربت نحرها إلي وقالت *** يا عديا لقد وقتـــــــــك الأواقـــــي

ما أرحي العيش بعد نداما *** وأراهم سقو كـــــــــأس حـــلاق(1)

أرى أن المهلهل بدأ مرثيته بالغزل ليميل نحوه القلوب ويصرف ويستوعي به اصغار الاسماع إليه لان النسيب قريب من النفوس كما قال ابن رشيق " وللشواء مذاهب في افتتاح القصائد بالنسيب لما فيه من عطف القلوب واستدعاء القبول

بحسب ما في الطباع من حب الغزل والميل الي اللهو والنساء ، وإن ذلك استدراج لما بعد فالغزل التمهيدي له دلالته كما أوضحت فليس حشوا أو عيب بل يخدم الغرض الذي افتتح به.

وقال حسان بن ثابت يرثي حمزه بن عبدالمطلب:

أتعرف الدار عفا رسمها *** بعـــدك السبل الهاطـــــــــل
بين الشراد يحفأ دمانة *** فمدع الروحاد في حائـــــــــل
سألتها عن ذلك فاستعجلت *** لم تـــــــــدري ما مزجوعة السائل
دعك عنك دار عفا رسمها *** وابـــــــك ذي السائـــــــــل (2)

ذكر حسان بن ثابت مرثيته بالوقوف علي الاطلال واستنطقها ولكنها لم تجيبه عن سؤاله وهذه عادة الشعراء عند الوقوف علي الأطلال ويهدف من ذلك لذكر أهلها وإثارة شجون المتلقي فتهيج عاطفته فيجاري الشاعر فيحزنه وآلامه قال ابن قتيبه مؤكدا ذلك:

" إنما ابتدأ فيها بذكر الديار والامن والاثار فيكي وشكا وخاطب الربع واستوقف الرفيق ليجعل ذلك سببا لذكر أهلها الطاغين عنها "

وذكر الأهل الطاغين عنها يرفع درجة توهج العاطفة لدي الشاعر والمتلقي ، فيزيد اهتمام المتلقي بالإصغاء لأن الوقوف علي الاطلال قريب من نفوس المفجوعين بما فيها ذكريات في القلوب .

هذا الغزل التمهيدي ليس قاعدة لدي الشعراء يجب السير علي خطاها بل نجد كثيرا من القصائد الخاصة بالرثاء تخلو من هذا اللون مثل قصيدة عنترة التي تحمل151 في شرح الديوان .

يرثي مالك بن زهير العيسي وتولي قتله بنويدر فقال :-

لله عينا من رأى مثل مـــــــالك *** عقيرة قـــوم أن جـــرى فرسان
فليبقهما لم يجزيا نصـــف غلوة *** وليتها لـــــم يرسلا لرهان
وليتهما ماتـــــــــــا جميعا ببلدة *** وأخطاهمـــــا قيس فلا يريـــان
لقد جلبا حينا وحربـــــــا عظيمة *** تبيد سراة القوم مـــــن غطفان
وكان فتي الهيجاء يحمي ذمارها *** ويضر عند الكرب كـــــل بنان (3)

فعنترة لم يلجأ للغزل ورثاء الفارس الهمام بذكر صفاته التي تظهر فيها الرجولة والنخوة والفروسية لأنه قائد لقومه وخاصة إذا اشتدت الحرب واستولى علي الناس الجزع والكرب ، وأرى ذكر الصفات القيادية للفارس هي التي استدعى

بها عنترة اسماع المتلقي لأن الشاعر يرثي بطلاً له مكانته في قبيلته التي كان يذود عنها ويقودها إلي المهابة من قبل الأعداء وهكذا الشاعر الحاذق العفيف الفخر

الغزل التمهيدي له علاقة قوية بالفخر ، لأن النفس في هذا الغرض منفعلة مهتاجة ، وكلنا يعرف أن الغزل له القدرة والفتوة والرفعة في الأخلاق التي يفخر بها الشاعر.

قال الشنفري مفتخراً بقتله جراما قاتل أبيه فاستفتح قصيدته بالغزل قائلاً:-

ألا أم عـــــمرو وأجمعت استقلت *** وما ودعت جيرانها إذا تولت
وقـــــــد سبقت أم عمرو بأمـرها *** وكانت بأعناق المطيء أظلت
بغيئ ما أمست فباتت فأصبحت *** فقضت أمورا فاستقلت فولت
فواكميد علي أميمة بعدمـــــــــا *** طمعت فهبها نعمة العيش زلت
فيا جارتـــــي وأنت غير مليحة *** إذا ذكرت ولا يـــذات نقلت(4)

وواصل الشنفري عزلة في أحد عشر بيننا ، ثم افتخر وتوعد خصومة بالهلاك .

والغزل التمهيدي ليس من باب الصدفة بل لان هذا الفخر له نزعة فنية ونفسية عند هؤلاء الشعراء الفرسان مثل عنترة كان فارسا عفيفا ، فافتخر بخصاله الحميدة، وكان غزله موجها إلي عبلة ، والغزل عند عنترة له دلالته وهي التقرب إليها ، حتي ينال اعجابها ، ويحصل علي رضاها دون خصومه قال عنترة مؤكدا ما ذهبت إليه :-

ألا يا عبلة قــد زاد التصابي *** ولج اليوم قومك في عذابـــي
وظل هـــــو الينمو كل يوم *** كما ينمـــــــو مشيب في شبابي
عتبت صروف دهري فيك حتي *** فنى وأيمك عمري في العتاب(5)

لم يحفل الشعراء بالغزل التمهيدي في جميع قصائد الفخر بل نجد لهم قصائد بدون غزل حتي ولو كان الشاعر مخبا فمثلا عنترة له قصائد في الفخر ولم يعدر بالغزل ، ولعل يرجع ذلك إلي المتلقي الذي يخاطبه بشعره فقال في أحد قصائده:

أنـــا في الحرب العوان *** غير مجهول المكان
أينما نـــــادي المنادى *** في دجى النقع يراني
وحسامـــــــى مع قناتي *** الفعالي شـــــــاهدان
أسقيه كـــــأس المنايا *** وقراها منه دانـــــي
أشعل النـــــــــار يأسى *** وأطـــــاها بجناني (6)

يفتخر الشاعر بنفسه دون تمهيد غزلي لأن فخره لم يكن لعبله ، وإنما كان موجهاً لخصومه الذين حاول أن يقللوا من شأنه لونه ، فهو يقيم الحجه عليه لأن مكانه في العرب معلوم لكى يستجيب لكل مستضيف.

المدح يتميز فن المدح بكثرة الغزل التمهيدي لما فيه من إثارة لعواطف المتلقي الذى يطرب للغزل ويشد انتباه للمبدع الذي يحاول أن يقنع سامعيه للموضوع الذى يتحدث فيه .

قال الأعشى في مدح قيس بن معد يكرب:-

أزمت مـــــــن آل ليلتي ابتكارا *** وشطت علي ذي هوى أن تزارا
وبانت بها غربـــــــات النوى *** وبدلت شوقا بها وأذكـــــــارا
ففاضت دموعى كفيض الغرو *** إما وكيفا وإما انحـــــــــدارا
كما أسلم السلك مـــــــن نظمه *** لآليء مخدارات صغـــــارا(7)

استغرق الغزل في هذه القصيدة أثنى عشرا بيتا لكى لا يلتفت المتلقي بذهنه لم حول ، ويبقي مشدوداً له ، فيعرف المتلقي الخصال والصفات التي يتحلى بها الممدوح ، فلعل يتقمص المتلقي بعض الصفات والخصال لأن المجتمع البدوي حريص كل الحرص علي الخصال والصفات الحميدة التي كانت تجود بها البداية .

وقال زهير بن كعب في مدح سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وقد جاء يطلب الآمان من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم في قصيدة بلغت سبعة وخمسين بيتاً ، لم يكن للمدح منها إلا عشرين بيتاً والباقي للغزل ووصف الناقه فقال:-

بانت سُعادُ فقلبي اليـــوم متبول *** مقيم إثـــــــــرها لم يخبر مكبول
وما سُعادُ غداة الين إذا رحـــــلوا *** إلا أعن غضيض الطرف مكحول
هيفاء مقبلة عجزاء مـــــــدبرة *** لا يشتكي قصر منها و لا طول
تجلو عوارض ذي ظلم إذا ابتسمت *** كأنـــــه منهل بالراح معلول
شجن بـــــ ـذي شيم ماء محنية *** صاف يابطع أضحى وهو مشمول
تجلو الريـــــاح القذى عنه وأفرطه *** من صـــوب سارية بيض بعاليل (8)

الغزل التمهيدي يلعب دور المقدمة في الخطبة التي يهيىء بها المتلقي لاستقبال ما يقوله الشاعر بعقل وعاطفة متفتحة حتى يشد انتباه المتلقي والاهتمام بالموضوع الذي يتحدث فيه وخاصة الذي تستهويه الصبابة.

يقول الدكتور أحمد محمد الحوفي مؤكداً ذلك : " واي حديث أشهى إلي النفس وأحلى موقعاً في الأذان من حديث الصبابة ؟ وأي افتتاح أدعى إلى الانصات و الانتباه من وصف المرأة في جمالها الساحر وفي وصلها وفي هجرها ورضاها

وصدها (2) وهذه الحقيقة تحمى كثيراً من الرجال أصحاب العواطف الجياشة ، ولعل الشاعر بغزله التمهيدي يحاول إظهار عواطفه وأحاسيسه بأنه إنسان مهما بدر منه من بعض السلوكيات التي تجافى الحقيقة مثل كعب بن زهير في هذه القصيدة.

والباحث في أشعار العرب يجد دواوين كثيرة فيها قصائد المدح مصورة بالغزل ، ولكن يجد في الديوان ذاته قصائد للمدح لم تبدأ بالغزل مثل قصيدة كعب بن زهير التي مدح فيها الأنصار الذين لم يذكرهم في قصيدته الكلامية التي مدح فيها الرسول صلى الله عليه وسلم مع إخوانهم المهاجرين ، وقالوا :- " ألا ذكرتنا مع إخواننا من قريش ؟" (3)

فاستجاب لهم قائلاً:-

من سره كرم الحياة فلا يزل *** في مقنب من صالحى الأنصار
تزن الجبال رازنة أحلامهم *** وأكفهم خلف مـــــــــن الأمطار
المكرهين السمهرى بأذرع *** كصواقـــــــل الهندي غير قصار
والناظريـــن بأعين حمرة *** كـــــــالجمر غير كلبلة الأبصار
والذائدين الناس عن أدبائهم *** بالمشرقى وبـــــــــالقنا الخطار
والباذلـــين نفوسهم لنبيهم *** يـــوم الهيـــــاج الجبـــــــار
ذربوا كما ذربت أسود حفية *** غلب الرقاب من الأسود ضواري (9)

في هذه المدحة لم يلجأ الشاعر إلي المقدمة الغزلية بل طرق باب المدح ذاكراً صفات الأنصار ، ولعل كعب في هذه المدحة حس بأن الأنصار مهيأة عواطفهم لاستقبال ماي قوله في حقهم وخاصة بعد تجاهلهم لاميته.

\ الهجاء تصدر قصائد الهجاء بالغزل ، لأن الهجاء لا يخلو من الفخر ، وذلك لأن الشاعر يفخر بنفسه ، ويحقر من شأن خصمه بذكر مثالب قبيلته ونقائصه ، بينما يباهي بمناقب قبيلته من كرم وذود عن الحياة ، ومهابة جانبها بفصل سطوتها ، ويثبر الغزل التمهيدي في المتلقي الانتباه والسماع لقول الشاعر . قال الاعشى يهجو علقمة بن ابن علالة ويمدح عامر بن الطفيل :

شاقتك من قتلة اطلالها *** بالمشط فالوتر إلي حاجز
فركى مهداس إلـــي ماردة *** فقاع منفوحة ذي الحـائـــــر
دارها غير آيـــــــاتها *** كـــــــل ملت صـوبه زاحر
وقد أراها وســط اتـرابها *** في الحى ذي البهجة والسامر
كدمية صور محـــــرابها *** بمذهـــــب فـــي مـــرمر ماتر

أو بيضة في الدعص مكتومة *** أو درة شيفت لـــــــدى تاجر
يشفى غليل النفس لا بها *** حوراء تسبـى نظـــر الناظر
ليست بسوداء ولا عنفص *** داعـــــــــرة تدنو إلـــي الداعر
عبيرة الخلق بـــــلاخية *** تسوبـــــــــه بالخلق الطاهر (10)

هذه القصيدة جمعت بين الغزل والهجاء والمدح ، فتغزل في أربعة عشر بيتاً لكي يثير إحساس المتلقى بما هو آت بعد الغزل،

وليدلل علي معايرة خصمه ورفع قدر ممدوحة وهذا الغزل ليس منفك عن الغرض الذي يليه ، فهو رابط نفسي لا ينفك عن وجدان الشاعر وكلنا يعرف أن هذين الغرضين صادران عن عاطفة جياشة لدى الشاعر يقول الدكتور أحمد محمد الحوفي :" ليس الغزل منفك الصلة بما بعده في نفس الشاعر ، وأن بدا ذلك في الظاهر لأن الشاعر كما قلت اما محب واما متصنع الحب "(2).

قد لا يلتزم الهجاء مطلع الغزل في بعض الأحيان إذا أراد الشاعر أن يهدد خصومه ويتواعد هذا عند الشعراء الفرسان مثل أمرىء القيس قال يهجو البراجم -:

ألا قبح الله البراجم كلها *** وجـدع يربوعـــــاً و عقر دارها
وآثر بالملحاة آل مجاشع *** ربـــــــــاب إماء يفتنن المفارما
فما قاتلوا عن ربهم وربيهم *** ولا دنـــــــــــو اجازا فيظفر سالما
وما فعلوا فعل العوير بجاره *** لـــــــــدى باب هند إذا تجرد قائماً(11)

ذكر امرؤ القيس خصومه بمثاليهم التي تحظ من شأنهم بدون الافتاح بالغزل لأن شعره موجها إليهم مباشرة حتي لا يتفاخرون بمأثرهم

أمامه لأن الحياة القبيلة تتطلب الشجاعة والرجولة في هذه البيئة التي تعتمد فيها القبائل علي نفسها مع بعض أحلافها .

الخاتمة :

يتضح من خلال البحث أن الغزل التمهيدي ليس حشوا في النص ، بل له دلالته التي يسعى الشاعر إلى تحقيقها لدى المستمع أي المتلقي الذى يهدف الشاعر فالتأثير في وجدانه واستمالته إليه ، ويأتى في القصائد التي تمثل عاطفة الشاعر الجياشة التي يهدف الشاعر إلي إخراج ذلك الاضطراب المتلهب في نفسه مثل الرثاء الذي يحاول فيه إظهار مشاعره الصادقة نحو مرتيه ، ويحاول بالغزل

التمهيد إشراك الآخرين في محنته ، وكذلك في الهجاء لأن الهجاء يأتي عن استفزاز من قبل الخصم ، ولا يريد أن يكون منفرداً، يريد من يناصر ويشد عضده ، لأن البيئة الصحراوية تفرض علي سكانها التناصر والتعاضد ضد أي خطر داهم ، و ما يقال في الأغراض التي ذكرت أجده ليقل شأناً عن الفخر الذى يرفع به الشاعر نفسه أو قبيلته أو محدو حبه إلي أعلى مراتب المجد والشرف ، وكذلك يظهر البحث هذا الفن أن المرأة العربية ليست مهانة ، ولا مبتذله بل يظهرها بأنها مهذبة ، وذات خلق ، وهي معتزة بكرامتها وأنوثتها وتشارك الرجال في كثير من المهام .

الهوامش

-1- الغزل في العصر الجاهلي الدكتور أحمد محمد الحوفى .دار النهضة – الطبعة الثالثة ص 258
-2- ديوان المهلهل .
-3- الاغاني لابى فرج الاحبهانى ص 5 – مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر ص 51 .
-4- العمدة لابن رشيق القيروالنى . دار الجبل بيروت تحقيق محمد محى الدين محمد ص 150.
-5- شرح ديوان حسان بن ثابت – الدكتور يوسف الشيخ – دار الكتاب العربي بيروت لبنان . ص 238-249 .
-6- ديوان حسان . تحقيق وليد عرفات دار صادر سنة 2006 . ص 321.
-7- الشعر والشعراء ابن قتيبة – دار احياء العلوم بيروت ص 31.
-8- شرح ديوان عنترة–الخطيب البريزي– قدم له مجيد طراد – دار الكتاب العربي بيروت ص 202
-9- نفس المصدر السابق ص 34.
-10- نفس المصدر السابق ص 146.
-11- ديوان الاعشى دار صادر بيروت الطبعة الثالثة سنة 2003 . ص 80.
-12- ديوان كعب بن زهير – دار صادر الطبعة الأولى سنة 1999 ص 83-84.
-13- الغزل في العصر الجاهلى دار النهضة – الطبعة الثالثة –ص43.
-14- ديوان كعب بن زهير – دار صادر الطبعة الأولى سنة 1995 ص 84.
-15- نفس المصدر ص 44.
-16- ديوان الأعشى دار صادر بيروت الطبعة الثالثة سنة 2003 ص 92.
-17- الغزل في العصر الجاهلى– الدكتور أحمد نحمد العوفى– دار النهضة الطبعة الثالثة ص267